

57

قصص الأنبياء

محمد

صلى الله عليه وسلم (١)

بنو إسماعيل

بقلم : أ. عبد الحميد عبد القصور

رسوم : أ. عبد الشافي سيد

إشراف : أ. حمدي مصطفى





النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ هُوَ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ أَجْمَعِينَ ، وَأَشْرَفُهُمْ
حَسَبًا ، وَأَفْضَلُهُمْ نَسَبًا مِنْ قَبْلِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ ..
فَهُوَ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَجَدُّهُ
الْأَكْبَرُ هُوَ إِسْمَاعِيلُ ابْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ آدَمَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ

والسلام .. وأُمُّهُ هِيَ السَّيِّدَةُ آمَنَةُ بِنْتُ وَهَبٍ

أَشْرَفُ نِسَاءِ الْعَرَبِ ، وَأَفْضَلُهُمْ حَسَبًا وَنَسَبًا ..

وَقَدْ جَاءَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ اسْتِجَابَةً لِدَعْوَةِ أَبِيهِ

إِبْرَاهِيمَ ، خَلِيلِ الرَّحْمَنِ ﷺ وَتَصَدِيقًا لِبُشْرَى

عِيسَى فِي الْإِنْجِيلِ نَبِيٌّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِهِ اسْمُهُ أَحْمَدُ ..

فَقَدِيمًا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَبْنِي الْكَعْبَةَ الْمَشْرُفَةَ مَعَ وَلَدِهِ

إِسْمَاعِيلَ ، وَدَعَا رَبَّهُ أَنْ يُخْرِجَ مِنَ الْعَرَبِ رَسُولًا مِنْهُمْ ..

يَوْمَهَا دَعَا إِبْرَاهِيمُ ﷺ رَبَّهُ قَائِلًا :

﴿..... رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *

رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً

لَكَ ، وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ

الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ

آيَاتِكَ ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ

الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

وقديماً أسكن إبراهيم عليه السلام زوجته هاجر ، وابنه
الرضيع إسماعيل بمكة ، وقد كانت مكة وقتها
صحراء جرداء ، ليس فيها زرع ولا ماء ، ولم يكن
أحد من البشر يسكنها ..

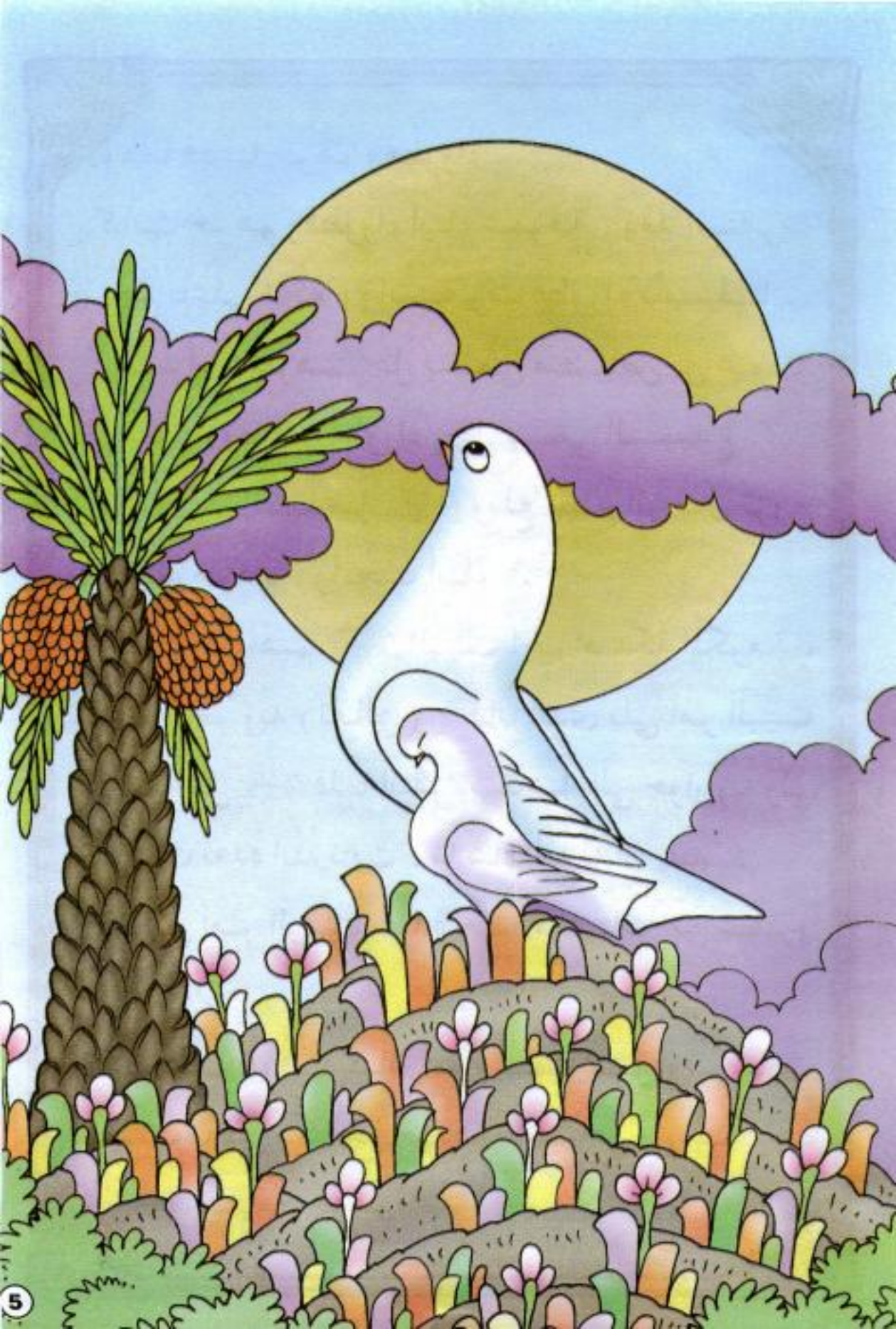
ودعا إبراهيم عليه السلام ربه أن يجعل الناس يأتون لعمارة
مكة ، وأن يرزق أهلها من الثمرات ..

واستجاب الله (تعالى) دعاء نبيه وخليفه إبراهيم
عليه السلام فتفجر الماء تحت قدمي الصغير إسماعيل ، وأمه
تسعى بين الصفا والمروة بحثاً عن الماء ..

وسمى النبع الذي تفجر منه الماء تحت قدمي
الصغير إسماعيل « بئر زمزم » ..

ولما تفجر الماء أنبت الله الزرع حوله ، وقدمت
بعض القبائل التي كانت تترحل في الصحراء إلى
مكة واستقرت بها فعمرت مكة بالناس ، ولم يعد
إسماعيل وأمه وحيدين بها ..

وكان من أشهر القبائل التي قدمت مكة واستقرت
بها في ذلك الوقت قبيلتان قدمتا من بلاد اليمن ،



وهما قبيلتا جرهم وقطوراء ..

كانت جرهم وقطوراء أبناء عمومة ، وقد استقرت
جرهم بأعلى مكة ، واستقرت قطوراء بأسفلها ..
وكان يرأس جرهم رجل يسمى مضاض بن عمرو
الجرهمي ، ويرأس قطوراء رجل يسمى السميدع ..
فلما كبر إسماعيل عليه السلام وبلغ مبلغ الرجال تزوج
من قبيلة جرهم ، وأنجب أبناء ..

ولما بنى إبراهيم عليه السلام البيت الحرام بمكة المكرمة ،
تنفيذا لأمر ربه (تعالى) ، كان الذي يلي أمر البيت
هو إسماعيل عليه السلام فلما انتقل إسماعيل إلى جوار ربه ولى
أمر البيت بعده ابنه نابت ، ما شاء الله له أن يليه ..
ثم ولى أمر البيت بعده جده مضاض بن عمرو
الجرهمي ..

وفى ذلك الوقت كان بنو إسماعيل وبنو نابت
يعيشون فى مكة مع جدّهم مضاض بن عمرو ،
وأخوالهم من جرهم ..

وَلَمْ يَلْبَثِ الْخِلَافُ أَنْ دَبَّ بَيْنَ قَبِيلَتَيْ جَرَاهِمَ
وَقَطُورَاءَ وَاعْتَدَى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، بِسَبَبِ تَنَافُسِ
كُلِّ مِنْهُمَا عَلَى مُلْكِ مَكَّةَ وَوِلَايَةِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ ، الَّتِي
كَانَتْ مَعَ مُضَاضِ بْنِ عَمْرِو ..

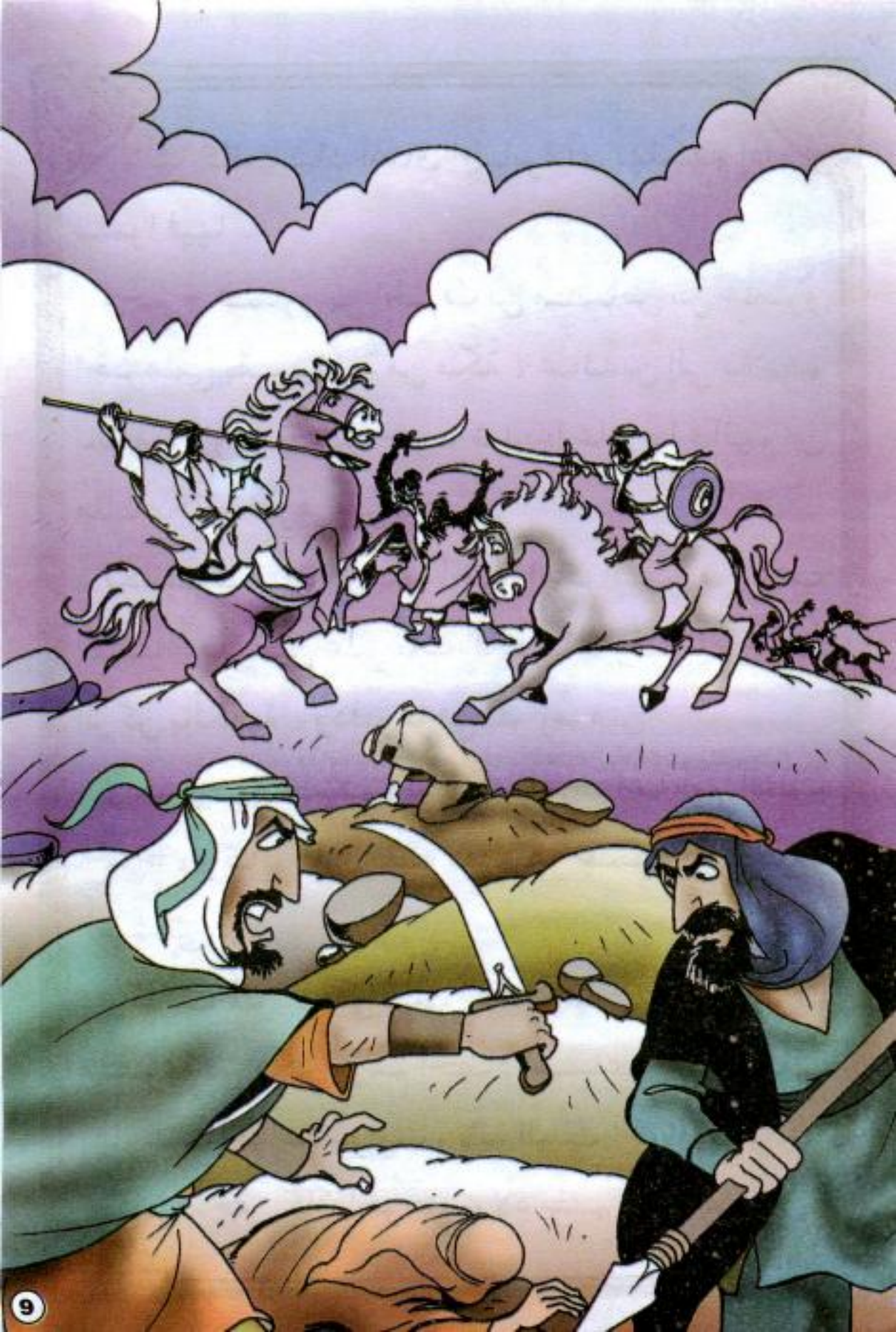
وَخَرَجَتْ قَبِيلَةُ جَرَاهِمَ وَمَعَهَا بَنُو إِسْمَاعِيلَ وَبَنُو
نَابِتٍ بِقِيَادَةِ مُضَاضِ بْنِ عَمْرِو ، وَمَعَهُمْ عَدَتُهُمْ مِنَ
السُّيُوفِ وَالرَّمَاكِ ، وَخَرَجَتْ قَبِيلَةُ قَطُورَاءَ بِخَيْلِهَا
وَرِجَالِهَا يَقُودُهَا السَّمِيدَعُ ، وَالتَّقَى رِجَالُ الْقَبِيلَتَيْنِ
فَاقْتَتَلُوا قِتَالًا شَدِيدًا .. وَقُتِلَ السَّمِيدَعُ فَانْهَزَمَتْ
قَطُورَاءُ ، ثُمَّ مَالَتِ الْقَبِيلَتَانِ لِلصُّلْحِ ، فَاصْطَلَحُوا
وَاتَّفَقُوا عَلَى أَنْ يَكُونَ لِمُضَاضِ بْنِ عَمْرِو مُلْكُ مَكَّةَ
وَأَمْرُ الْبَيْتِ الْحَرَامِ ..

وَانْتَشَرَ أَبْنَاءُ إِسْمَاعِيلَ بِمَكَّةَ ، فَتَكَاثَرُوا وَزَادَ عَدَدُهُمْ ،
وَبِرْغَمِ ذَلِكَ تَرَكُوا أَمْرَ وَلَايَةِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ لِأَحْوَالِهِمْ
مِنْ جَرَاهِمَ ، بِرْغَمِ أَنَّهَمْ كَانُوا أَحَقَّ بِهَا مِنْهُمْ ،
وَذَلِكَ تَعْظِيمًا لِلْبَيْتِ الْحَرَامِ ، وَلِمَكَّةَ بَلَدِ اللَّهِ

الحَرَامُ ، حَتَّى لَا يَكُونَ بِهَا بَغْيٌ أَوْ قِتَالٌ .. فَلَمَّا
ضَاقَتْ مَكَّةُ عَلَى بَنِي إِسْمَاعِيلَ ، انْتَشَرُوا فِي الْبِلَادِ
مِنْ حَوْلِهَا وَمَعَهُمْ دِينُ أَبِيهِمْ إِسْمَاعِيلَ ، فَلَا يُعَادِيهِمْ
أَحَدٌ إِلَّا نَصَرَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِ ..

أَمَّا جُرْهُمُ فَقَدْ اسْتَمَرُّوا عَلَى وَلَايَةِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ ،
لَكِنَّهُمْ بَغَوْا وَظَلَمُوا بِمَكَّةَ وَاسْتَحَلُّوا خِصَالًا مِنْ حُرْمَةِ
الْبَيْتِ ، فَظَلَمُوا مَنْ دَخَلَ مَكَّةَ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهَا ، وَأَكَلُوا
مَالَ الْكَعْبَةِ الَّذِي عُهِدَ إِلَيْهَا ، لِيُنْفَقَ عَلَى إِطْعَامِ
حُجَّاجِ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ وَسَقَايَتِهِمْ ..

فَلَمَّا رَأَتْ بَعْضُ الْقَبَائِلِ بَغْيَ جُرْهُمُ وَظَلَمَهُمْ لِحُجَّاجِ
بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ ، اسْتَعَدُّوا لِحَرْبِهِمْ وَإِخْرَاجِهِمْ مِنْ مَكَّةَ
بِلَدِ اللَّهِ الْحَرَامِ ، وَأَنْذَرُوهُمْ بِالْحَرْبِ .. وَقَاتَلَتْ قَبِيلَةُ
بَنِي بَكْرٍ وَقَبِيلَةُ غَبْشَانَ جُرْهُمًا فَغَلَبُوهُمْ وَأَخْرَجُوهُمْ
مِنْ مَكَّةَ بَظْلَمِهِمْ .. وَكَانَتْ مَكَّةُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَا تُقَرُّ
فِيهَا ظَالِمًا وَلَا مُعْتَدِيًا ، فَلَا يَبْغَى فِيهَا أَحَدٌ إِلَّا أَخْرَجَتْهُ ،
وَلَا يَغْزُوهَا مَلِكٌ لِيَسْتَحِلَّ حُرْمَتَهَا إِلَّا هَلَكَ
مَكَانَهُ .. وَيُقَالُ إِنَّ مَكَّةَ سُمِّيَتْ بِـ «بَكَّةَ»



لأنَّهَا كَانَتْ تَبْكُ أَعْنَاقَ الْجَبَابِرَةِ أَيُّ تَهْلِكُهُمْ إِذَا

ظَلَمُوا فِيهَا ..

وَخَرَجَ عَمْرُو بْنُ الْحَرْثِ بْنِ مِضَاضِ بْنِ عَمْرِو
الْجُرْهُمِيُّ بِقَبِيلَتِهِ مِنْ مَكَّةَ ، عَائِدِينَ إِلَى بِلَادِهِمْ
بِالْيَمَنِ ، وَقَدْ حَزَنُوا حَزْنًا شَدِيدًا عَلَى مَا فَاتَهُمْ مِنْ
مُلْكِ مَكَّةَ وَخَيْرِهَا وَبَرَكَتِهَا ..

لَكِنَّهُمْ قَبْلَ أَنْ يَرْحَلُوا أَخَذُوا غَزَالَتَيْنِ مِنْ ذَهَبٍ
كَانَتَا مُعْلَقَتَيْنِ عَلَى بَابِ الْكَعْبَةِ ، وَكَذَلِكَ حَجَرَ
الرُّكْنَ بِالْكَعْبَةِ ، وَدَفَنُوهَا فِي بئرِ زَمْزَمَ ..

وَبَعْدَ رَحِيلِ جُرْهُمٍ وَلِيَتْ قَبِيلَةُ خُزَاعَةَ أَمْرَ الْبَيْتِ
الْحَرَامِ ، وَكَانَ الَّذِي يَلِيهِ مِنْهُمْ هُوَ عَمْرُو بْنُ الْحَرْثِ
الْغُبَشَانِيُّ ..

وَكَانَتْ قُرَيْشٌ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مَجْمُوعَةً بِبُيُوتٍ
مُتَفَرِّقَةٍ فِي مَكَّةَ ، وَهُمْ أَحْفَادُ إِسْمَاعِيلَ الَّذِينَ بَقُوا
بِهَا وَظَلَّتْ خُزَاعَةُ تَتَوَارَثُ وَلَايَةَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ كَابِرًا عَنْ
كَابِرٍ ، حَتَّى كَانَ آخِرُ مَنْ تَوَلَّاهُ مِنْهُمْ رَجُلٌ يُسَمَّى

حُلَيْلُ بْنُ حَبْشِيَّةَ بْنِ سُلُولِ بْنِ عَمْرِو الْخَزَاعِيِّ ..
وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ قُصَيَّ بْنَ كِلَابٍ تَزَوَّجَ مِنْ حُبَيِّ بِنْتِ
حُلَيْلٍ ، وَأَنْجَبَ مِنْهَا عَبْدَ الدَّارِ وَعَبْدَ مَنْفٍ وَعَبْدَ الْعُزَّى
وَعَبْدًا ، فَلَمَّا انْتَشَرَ وَلَدُ قُصَيٍّ وَكَثُرَ مَالُهُ ، وَعَظُمَ
شَرَفُهُ فِي مَكَّةَ ، مَاتَ حُلَيْلٌ ، وَرَأَى قُصَيٌّ أَنَّهُ أَوْلَى
بِأَمْرِ الْكَعْبَةِ وَمُلْكِ مَكَّةَ مِنْ خُزَاعَةٍ ..

وَيَرْجِعُ ذَلِكَ إِلَى أَنَّ قُصَيَّ مِنْ قُرَيْشٍ ، وَقُرَيْشٌ هِيَ
أَعْلَى أَبْنَاءِ إِسْمَاعِيلَ وَأَعَزُّهُمْ وَأَكْرَمُهُمْ ، وَلِذَلِكَ فَهُمْ
أَوْلَى بِأَمْرِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ دُونَ سِوَاهُمْ مِنَ الْقَبَائِلِ ..
وَقَدْ قَالَ الرَّسُولُ ﷺ :

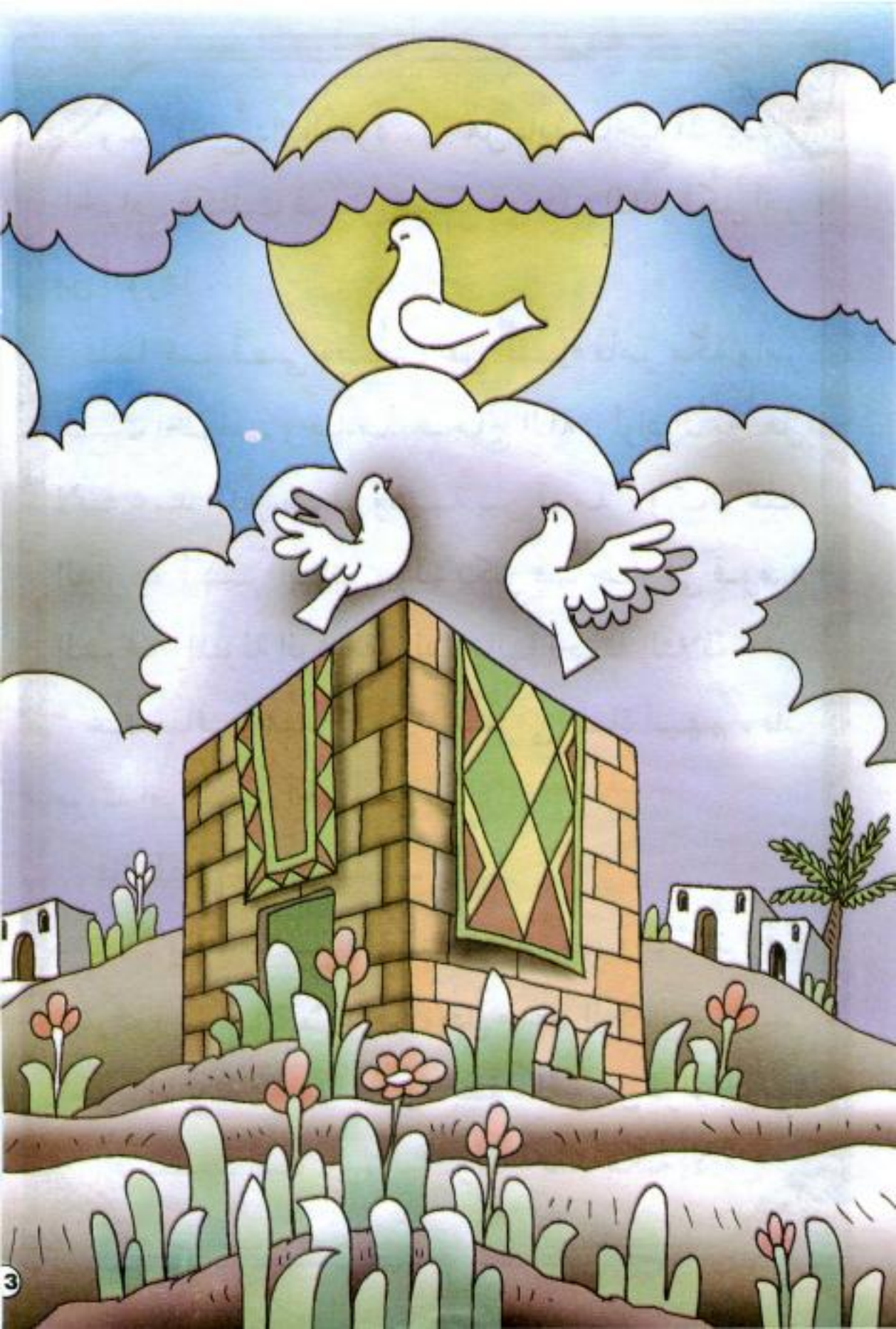
«إِنَّ اللَّهَ اخْتَارَ كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ ، ثُمَّ اخْتَارَ مِنْ
كِنَانَةَ قُرَيْشًا ، ثُمَّ اخْتَارَ مِنْ قُرَيْشِ بَنِي هَاشِمٍ ، ثُمَّ
اخْتَارَنِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ» ..

كَلَّمَ قُصَيٌّ رِجَالًا مِنْ قُرَيْشٍ وَمِنْ بَنِي كِنَانَةَ وَدَعَاهُمْ
إِلَى إِخْرَاجِ خُزَاعَةٍ وَبَنِي بَكْرِ مِنْ مَكَّةَ ، فَأَجَابُوهُ

وَنَصَرُوهُ عَلَى خُزَاعَةَ وَبَنِي بَكْرِ ، لِأَنَّهُ كَانَ أَوْلَى
بَأَمْرِ مَكَّةَ وَالْبَيْتِ الْحَرَامِ مِنْهُمْ ..

وَلَمَّا وَلِيَ قُصَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ وَأَمَرَ مَكَّةَ جَمَعَ قَوْمَهُ مِنْ
مَنَازِلِهِمْ إِلَى مَكَّةَ ، وَمَلَكَهُ قَوْمُهُ وَأَهْلُ مَكَّةَ عَلَيْهِمْ ،
فَكَانَ قُصَى أَوَّلَ مَلِكٍ مِنْ بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَى أَطَاعَهُ
قَوْمُهُ ، وَحَازَ قُصَى شَرَفَ مَكَّةَ كُلَّهُ ، فَكَانَتْ إِلَيْهِ
الْحِجَابَةُ (أَيْ كَانَتْ عِنْدَهُ مِفَاتِيحُ الْبَيْتِ الْحَرَامِ ، فَلَا
يَدْخُلُهُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ) ، وَالسَّقَايَةُ (وَهِيَ سَقَايَةُ
حُجَّاجِ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ مِنْ بَعْرِ زَمْزَمَ ، وَكَانُوا يَصْنَعُونَ
مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ شَرَابًا لِلْحُجَّاجِ يَمْزُجُونَهُ بِالْعَسَلِ أَوْ النَّبِيذِ) ،
وَالرَّفَادَةُ (وَهِيَ طَعَامٌ كَانَتْ قُرَيْشٌ تَجْمَعُهُ كُلَّ عَامٍ
لِلْحُجَّاجِ ، وَيَقُولُونَ : هُمْ أَضْيَافُ اللَّهِ) ، وَالنَّدْوَةُ
(وَهِيَ الْاجْتِمَاعُ لِلتَّشَاوُرِ فِي أُمُورِهِمْ) ، وَاللُّوَاءُ
(وَهُوَ عَقْدُ لُوَاءِ الْحَرْبِ) .. كُلُّ هَذَا الشَّرَفِ حَازَهُ
قُصَى وَحْدَهُ ..

وَقَدْ قَسَمَ قُصَى مَكَّةَ بَيْنَ قَوْمِهِ مِنْ قُرَيْشٍ ، وَأَنْزَلَ
كُلَّ قَوْمٍ مِنْهُمْ مَنَازِلَهُمُ الَّتِي أَقَامُوا فِيهَا ..

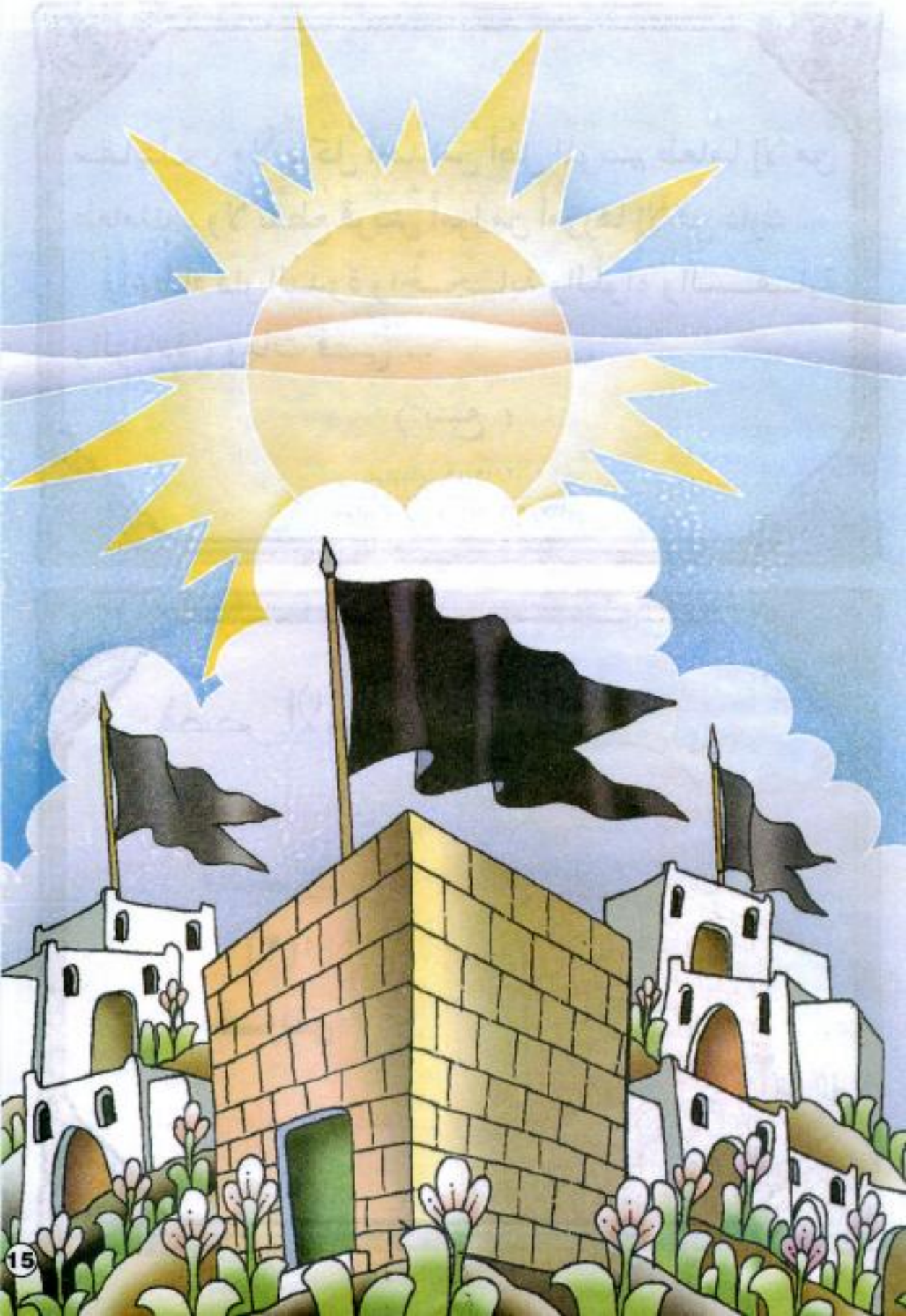


وَبَنَى قُصَى دَارَ النَّدْوَةِ ، وَجَعَلَ بَابَهَا نَاحِيَةَ الْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ ، فَكَانَتْ قُرَيْشٌ تَجْتَمِعُ فِي هَذِهِ الدَّارِ لِكُلِّ أَمْرٍ
مِنْ أُمُورِهَا ..

فَلَمَّا كَبُرَ قُصَى وَضَعُفَ عَنِ الْقِيَامِ بِأَمْرِ مَكَّةَ وَأَمْرِ
الْبَيْتِ الْحَرَامِ ، وَخِدْمَةِ حُجَّاجِ اللَّهِ ، أَرَادَ أَنْ يَجْعَلَ
لِابْنِهِ عَبْدِ الدَّارِ شَرْفًا وَهَيْبَةً بَيْنَ قَوْمِهِ ، وَكَانَ عَبْدُ
الدَّارِ هُوَ أَكْبَرُ أَبْنَائِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ قَدْ حَازَ فِي قَوْمِهِ
الشَّرْفَ وَالْمَنْزِلَةَ الرَّفِيعَةَ ، الَّتِي نَالَهَا إِخْوَتُهُ الثَّلَاثَةُ :
عَبْدُ مَنَافٍ وَعَبْدُ الْعُزَّى وَعَبْدُ فِي حَيَاةِ أَبِيهِمْ ، بِأَنْ
يُورَثَهُ أَمْرَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ مِنْ بَعْدِهِ ..

قَالَ قُصَى لَوْلَدَهُ عَبْدِ الدَّارِ :

- أَمَّا وَاللَّهِ يَا بُنَى لِأَحْقَنِكَ بِالْقَوْمِ ، وَإِنْ كَانُوا قَدْ
شَرَفُوا عَلَيْكَ ، لَا يَدْخُلُ رَجُلٌ مِنْهُمْ الْكَعْبَةَ ، حَتَّى
تَكُونَ أَنْتَ تَفْتَحُهَا لَهُ ، وَلَا يُعْقَدُ لِقُرَيْشٍ لَوَاءٌ لِحَرْبِهَا
إِلَّا بِيَدِكَ أَنْتَ ، وَلَا يَشْرَبُ أَحَدٌ بِمَكَّةَ إِلَّا مِنْ



سَقَايَتِكَ ، وَلَا يَأْكُلُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْمَوْسِمِ طَعَامًا إِلَّا مِنْ
طَعَامِكَ ، وَلَا تَقْطَعُ قُرَيْشٌ أَمْرًا مِنْ أُمُورِهَا إِلَّا فِي دَارِكَ ..
وَأَعْطَاهُ دَارَ النَّدْوَةِ وَالْحُجَابَةِ وَاللَّوَاءَ وَالسَّقَايَةَ
وَالرَّفَادَةَ ، وَمَاتَ قُصَيٌّ ..

(يتبع)

رقم الإيداع : ٢٠٠٢/١٩٠٤٩

الترقيم الدولي : ٤ - ٨٣٩ - ٢٦٦ - ٩٧٧

فصل الأنبياء

الكتاب التالي

محمد ﷺ

(٢)

قريش

احرص على اقتنائه

